

جمرة لهذا المساء، الثلجي

فاطمة عبود نداد

ولدت فيها بعد عام النكبة الأولى بشهور . . وكان أهلها قد جاؤوها لاجئين من إحدى قرى حيفا، وسكنوا في مخيم على طرف من أطراف المدينة ثم انتقلوا بعد عدة سنوات إلى حي شعبي من أحيائها القديمة ليقيموا على مقربة من المحل التجاري الذي اشتغل فيه والدها . . في البداية كانوا ضجرين بغربتهم وفقدهم وسط عالم مكتوم في ذلك الزقاق الحجري الذي ترتص فيه البيوت المقفلة والشبابيك الخشبية المغلقة وإيقاع الرتابة المشبع بأنفاس القرون الوسطى . . ثم يبسطه نشأت ألفة حميمة بينهم وبين ذلك العالم الغريب . . . تفاصيل كثيرة حفرت في نفسها تالفاً لم تمسحه المدن الأخرى . . . ربما لأنها عاشت طفولتها وفترة من صباها هناك . . .

صور كثيرة تتزاحم في ذاكرتها . . . أصوات أغنيات شعبية . . أهازيج الأعراس . . مدرستها . . بنات الجيران . . صديقاتها . . تجربة الحب الأولى الكلية . . الأمسيات الشعرية . .

ربما . . لأنها التقت فيها بالرجل الذي أحبه ثم تزوجته وهاجرت معه . . .
بكي الطفل . . .

فانتفضت وأسرعت إليه تحضنه، عاد الطفل إلى غفوته بعد أن اطمأن إلى صدر أمه . . أرقدته بحذر وانسلت إلى النافذة . . .

أسندت مرفقيها على الحافة تنظر السماء بعينين بليدين . . . لا شيء فيهما . . فقد تحنط الحزن وتجمد الدمع . . .

ابتدأ المساء مجمهاً ظلمته على حدود النوافذ، فتجلت أضواء البواخر الراقية في الميناء مثل نجوم صغيرة في مجرة . . .

ما من صوت أو نامة . . سوى دقات الساعة الرتبية . . فقد غفا الطفل ذو الستين بعد أن هددهته أمه بأغنيات حفظتها منذ الطفولة عن جدتها وأمها . . . وغاب الرجل في إحدى حانات المدينة يشرب ثمالة المدن التي أعلنت عن غيبها فخائته ثم لفظته . . .

تكومت المرأة في كرسيها أمام جهاز التلفاز وقعدت في حضنها كتاب لم تقرأ منه شيئاً . . تسللت نسيمات ناعمة عبر النافذة المفتوحة على البحر فأنعشت ذاكرتها . . .

هذا المساء التمزوي شديد الرطوبة . . وجه المذيعة يملأ الشاشة الصغيرة تداخلت أصوات كثيرة مع صوت المذيعة . . . ترددت في داخلها . . ثمّة رائحة تمددت في شرايينها فأشعلت في جوانحها مشاعر مضطربة وأثقلت بصور بعيدة . . .

هي المدن . . .

كالبشر نألفها وندمنها . . نشم رائحتها وتبقى ملامحها عالقة في الذاكرة حتى وإن تضاءت ما بيننا المسافات فإنها تأتي الينا معبأة في الأحلام . . .

استرخت المرأة وبخلقت في فضاء الغرفة . .

تلك المدينة الشامية الجالسة في أقصى الشمال حول قلعة ناهضة منذ عصور بعيدة .

رغم السنوات التي مضت وهي تقفز بحقيقية سفرها من بلد إلى آخر لم تغادرها تلك المدينة يوماً واحداً . . .

صوت المفتاح يدور في قفل الباب .. توقفت أنفاسها
لثوانٍ وهي تكتم انفعالها ..
رسمت ابتسامة بلهاء على شفثيها وذهبت تستقبل
رجلها ...

- تأخرت اعذريني

- لا يهم مثل بقية الأيام .. وأنا بنيلوب أنتظر ..

- أنا جائع .

- العشاء جاهز . . خمس دقائق حتى أسخنه ..

أخذ يمضغ طعامه بميكانيكية ويفتوه ببعض الكلمات عن
تفاصيل يومه .

- هل قرأت صحف اليوم

- تصفحتها على عجل .. لا جديدا!

- كيف حال الصبي؟

- بخير، سأل عنك قبل أن ينام .

- سأوقظه .

- كما تشاء .. ألا تشرب الشاي؟

- لا، ناوليني زجاجة بييرة باردة .

- حاضر .

- ومعك الراديو .. حان وقت الأخبار

تمدد الرجل على الأريكة يستمع إلى نشرة الأخبار ويقرأ
في مجلة .. جلست المرأة تحسوك الصوف وتشاهد
التلفاز ...

يتقاطر الزمن .. عقارب الساعة تمشي ببطء .. تتشاءب
المرأة بعد يوم عمل مجهد .. تتذكر شيئاً ... تهض ...
يرفع الرجل عينيه عن صفحة المجلة ...

- ما بك؟

- تذكرت، وصلتك رسالة اليوم .

- رسالة ممن؟

- من الأهل .. سأجلبها لك ...

استوى الرجل في جلسته .. فضَّ طرف الظرف بلهفة ...
ابتسم وأشرق محياه تابع قراءة الرسالة .. قطب حاجبيه ..
اكتأبت ملامحه .. انقبض قلبها وتوقفت أنفاسها وهي ترقبه ..

- كيف حالهم؟

- بخير .

- هل من أخبار جديدة؟

- كالعادة .. مشاكل .. لا بد من سفري إليهم ..

- وهل تستطيع؟

- يقولون إنهم عملوا لي تصريحاً بدخول الأرض
المحتملة ...

عادت المرأة إلى حياكة الصوف واستلقى الرجل على
الأريكة مشتت الذهن يفكر في أمور كثيرة .. البيت ..
الطفل .. الزوجة والأهل .. الوطن .. الغربة مسؤولياته
المتشعبة ...

نظر بطرف عينه إلى المرأة الجالسة قبالة كتمثال أثري ..
هل يصدق نفسه بأنها كانت قطرة الندى التي سقطت في
صحرائه فاخضرت ربيعاً؟ هل يمكن لهذه الهضبة اللحمية أن
تكون في يوم ما غزلاً فجّر في قلبه الأمنيات؟ شعر بحقد
يلهب أحشائه المترعة بالخمير والطعام .. وأخذ يلعن
«دارون» الذي قال بأن القرد تطور إلى إنسان ... انظر أيها
الدارون المغفل كيف يتحول الإنسان إلى قردا ...

قهقه بصوت مجلجل .. نظرت إليه بارتياح .

- ما الذي يضحكك؟

- تذكرت نكتة حكيتها لي زميلة هذا اليوم ...

ابتسمت بسخرية .. تذكرت سلسلة الحكايا الخرافية التي
ينسجها حول نفسه كي يثير غيرتها .. ضحكت .

- ما الذي يضحكك؟

- تذكرت حكايا مشابهة لقصة اليوم .

تبأ لك أيتها المرأة الصغيرة .. من أي طين جبلت؟
حسناً! لتعلمي بأنك لم تعودتي أثاي المشتهة .. مجرد زوجة
ألفتها وأدمتها .. فقدت طعمها . إنني أحلم بالنساء
الجميلات .. وأشعر بإحساس غريب ينتابني كلما صادفت
امرأة غزاة .. لقد ماتت تلك العواطف التي دفعتني للارتباط
بك .. أما الاستمرار معك فهو شيء قرره وجود الطفل
بيننا .. فأنا لا أريد أن ينشأ ابني معقداً .. كل ما أسعى إليه
أن ينمو بشكل طبيعي وسط جو أسري .. أب .. وأم ..

جاء الصبي .. وهو يعرك عينيه من أثر النوم .

- بابا .

- حبيبي هل صحوت؟

- أخذه الرجل في حضنه يقبله .. ثم أبعده .

- لقد بال على نفسه .. خذيه إلى الحمام ..

مزدوجة، فكان الحمل الثاني مضنياً لهما . . حتى جاء الطفل فأضاء جانباً من حياته وبث فيها حباً للحياة . . فقرر بينه وبين ذاته أن يعيش لهذا الكائن الجديد . . باختصار . . لقد بات يرى نفسه ثانية من نور عيني هذا الطفل . .
صرخت المرأة بالتبايع:

- أنجذني . .

هب واقفاً وقد تجمد الدم في رأسه:

- ماذا جرى؟

- أسرع إلي . .

تعثر بالأريكة وفقد توازنه . . لم يدركم استغرق الوقت حتى وصل الحمام . . فوجد الصبي مزرقة جاحظ العينين بين يدي أمه .

خطفه منها وصاح:

- ما به؟

- لست أدري . . كنت أضع على رأسه المنشفة فتوقف تنفسه فجأة .

ضغط على صدر الطفل بقوة . . وضع فمه على ثغره الصبي ليعطيه الهواء . .

- أسرع بنا إلى المستشفى .

تذكر الرجل شيئاً فجن وصرخ:

- هل أخذت منه قطعة النقود التي أخذها من جيبى . .

- لم أر معه شيئاً؟

- كان يطبق عليها راحته بقوة . . لا بد أنه ابتلعها . .

بدا الطريق إلى المستشفى طويلاً كامتداد الزمن . . حاول سائق التاكسي أن يهدئ من روع الأبوين .

- بسيطة يا أخي إن شاء الله سليمة .

كانت شفتا الرجل ترتجفان وهو يرى ابنه على وشك أن يفارق الحياة . . أما المرأة فقد أخذت تنظر إليه وهي في شبه غيبوبة عاجزة عن النطق . .

أدخل الصبي غرفة الطوارئ وجرى الطبيب الجراح بمباضعه آملاً انقاذه . .

وقف الاثنان أمام الباب المغلق .

الرجل يدخن ويتمتم مستنجداً بالإله .

الأم تضرب صدرها ورأسها وتسكب الدمع بصمت . .

حملته بين ذراعيها فتشبث بشعرها وراح يرفس بقدميه في الهواء . . خلعت عنه ملبسه المبللة . . وفتحت الماء الساخن على الحوض لئتملاه فهرب الصبي منها وعاد إلى أبيه عارياً مكرراً . . تعثر فوق على الأرض . . ركضت المرأة وهي تصرخ:

- أيها العفريت! تعال معي . .

هرب منها الصبي واحتمى بحضن أبيه . .

- اذهب مع ماما لتستحم وتلبس ملابس نظيفة وبعدها تعال لأحككي لك حكاية حلوة عن بلد اسمه فلسطين . .

- لا، أريد (أريد) الدب والثعلب . .

- سأحككي لك ما تريد بعد أن تلبس بيجامتك . .

ذهب الولد مع أمه . . فأغمض الرجل عينيه يسترجع بقايا صور من قرينه الجبلية التي غادرها عام ٦٧ بعد النكسة الثانية ليتابع دراسته في إحدى المدن العربية . .

كم أثلثته السنوات وهو يحلم باليوم الذي يعود فيه إلى أرضه وأهله الذين غادرهم . .

جاءه خبر موت أبيه تاركاً له إرث أكوام صغيرة من اللحم تحتاج رعايته وهو البعيد . . فاشتغل في أحد المطاعم قبل أن ينهي دراسته في كلية الهندسة وأصبح موزعاً بين مسؤوليتين . .

مرة فاض به الشوق وقرر أن يزورهم بعد غياب سنوات طويلة . . . عبر الجسر بتصريح رسمي . . فألقت عليه القبض سلطات الاحتلال بتهمة التخريب قبل أن تطلأ قدماه أرض الضفة الأخرى ومكث تحت أفانين التعذيب الوحشي عشرين يوماً . . نقل بعدها إلى أحد المعتقلات دون محاكمة . . .

كتب أشعاره الأولى في المعتقل فنقلها أحد الفدائيين إلى خارج الأرض المحتلة وطبعت له في ديوان . . .

أفرجت عنه سلطات الاحتلال بعد سنتين مع أمر بالنفي . .
فحمل البندقية . . .

والتقى صدفة بامرأة أحبها فتزوجها . . وكتب لها قصائد غزلية كثيرة . . ونقلت عليه أعباء المنفى وأعباء النكسات فهرب إلى قصائده التي لم يكتبها بعد . .

حملت زوجته فأحس بالأبوة قبل أن يكتمل الجنين ، لكنه فجع بإجهاضها اثر معركة بيروت الأولى . . . وكانت فجيعة

تلتقي عيونهما . .

يرى في عينيها الدامعتين غزالتة التي استنزفها زمن وحشي
فيخفق قلبه . . يتقدم إليها يمسك يدها، يقبلها . . يحيط كتفيها
بذراعه ليمدّها بشحنة من الأمان المفقود . .

- ارحمني نفسك وارحميني . .

نظرت اليه ثم تعلقت عيناها على الباب المغلق . . لم
ينبس بكلمة وغابت عن الوعي . .

التقطها بين يديه وأجلسها على كرسي قريب . . صاح
بحسرة .

- يا رب أية كارثة حلت بنا! . .

اسرعت إليه إحدى الممرضات .

- هل آتيك بكوب ماء . .

- أرجوك

فتح الباب المغلق . . اطل وجه الطبيب مرهقاً . . . تنفس
بارتياح .

- الحمد لله لقد نجا بأعجوبة .

تنهدت المرأة

- الحمد لله . .

نهضت متناقلة وأمسكت بيد زوجها وضغطت عليها بحرارة .

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتورة
نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- الأغنية الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبية
- تعلمت الحب
- حنان قليل
- لحظة صدق